والاستثناءات قليلة جداً بل ونادرة – بل ولم يتخط التنظير المنطلق من بديهيات خاصة لا عامة – أي من مقولات يعتبرها القوميون وحدهم من البديهيات، ولا يعتبرها غيرهم كذلك – وبالتالي، فتنظيرهم يقع في فخ اللاعلمانية، بالاضافة إلى أن منطقهم لا يعتمد الدراسات السياسية – السوسيولوجية الميدانية. ولا شك في أن منطق فيصل حوراني اعتمد منهجاً علمياً موضوعياً حين لم يكن يصل الى نتائجه إلا بعد دراسة مقدماته.

إن نظرة سريعة على عناوين بعض المقالات والمحاضرات، حول العلاقة بين القومية العربية أو حركة التحرر العربي والقضية الفلسطينية أو المقاومة، تكفي للتدليل على ما قلت؛ فهي تطرح أموراً أقرب إلى الشعارات منها الى البحوث والدراسات المعنهجة منهجاً علمياً. ومن هذه الشعارات مثلاً: «فلسطين ضمانة اللقاء القومي» الذي صار عنوان مقال كتبه معن بشور، ولم يقل فيه كيف تكون فلسطين ضمانة اللقاء القومي، بل اكتفى بعبارات من مثل: «وإذا كانت المسألة الوطنية في أي قطر عربي هي مسألة متلازمة مع المسألة القومية، فان الوطنية في فلسطين هي في قلب القضية القومية، بل هي احدى تعبيراتها الساطعة الواضحة» (صوت الجماهير، بيروت، ١٩٧٨/١١/٧). فهذه العبارة تدل على انطلاق بشور من افتراضه أن خلفية منطلقه انما هي قائمة على مسلمات بديهية، وبالتالي خلت هذه العبارة من كيف ولماذا: كيف توصل بشور الى هذه النتيجة، ولماذا تكون المسألة الوطنية متلازمة مع المسألة القومية؟ ولماذا تكون الوطنية في فلسطين هي في قلب القضية القومية؟ فاذا كانت مثل هذه «المنهجية» تغيب عن كتابات معن بشور القومية، والتي تعتبر نسبياً من أكثر الكتابات القومية التصاقاً بالقضية الفلسطينية وتفهماً لها، فما بالك بالآخرين؟ ونقرأ لبشور أيضاً، وفي نفس المقال: «ذلك أن الوطنية الفلسطينية تقوى بالقومية العربية ويشتد عودها وتقترب من تحقيق أهدافها، تماماً مثلما هي التي تحرك باستمرار المشاعر القومية وتلهبها وتعبئها على طريق الوحدة» (المصدر نفسه). وهنا أيضاً، يعمم بشور بديهياته ويغيب السؤالان: لماذا وكيف. ماذا لو قامت دولة وحدة فعلاً، ورأت في حسابات السلطة السياسية لها، أن تواجد المقاومة الفلسطينية على أرضها وانطلاقها من حدودها قد يؤدي الى جرها الى معركة تفضل تأجيلها ولو الى حين، بحجة الاستعداد لها؟ أليس هذا الاحتمال وارداً؟ كيف اذن تُنظم العلاقة بين دولة الوحدة المفترضة والمقاومة الفلسطينية؟ إلا أن البديهيات هنا، أيضاً، تحل محل البحث العلمي المنهج، فنقرأ له في نفس المقال: «وقوة فلسطين وقضيتها لم تكن في يوم واحد في احتدام التناقضات العربية واشتعالها بل كانت بالأساس من ذاتها ومن التفاف جماهيرها الفلسطينية والعربية حولها، وكانت تقوى باستمرار كلما كان الموقف العربي موحداً...» (المصدر نفسه).

أين الأمثلة؟ أين الدلائل؟ أين البراهين المعتمدة على التحليل العلمي؟ لماذا نصل إلى النتائج قبل طرح المقدمات، وكيف ينطلق من بديهيات ليست بديهية إلا بالنسبة لتيار محدد؟ أين الدراسة الميدانية؟ أين البحوث الواقعية المادية الموضوعية؟

وتحت عنوان «استقلالية القرار الثوري الفلسطيني ضمانة استمرارية النضال الوحدوي العربي» تتكرر المعضلة نفسها مع معن بشور. كيف ولماذا تكون استقلالية هذا القرار ضمانة لاستمرارية النضال الوحدوي العربي وما هي الحالات والوقائع التاريخية التي تدعم مثل هذا الشعار؟ هنا، أيضاً يكتفي معن بشور باعادة مسلمات لم يمنحها أحد صفة البديهية، باستثناء الذين يؤمنون بها إيماناً. نقرأ لمعن بشور تحت العنوان المذكور أعلاه: «فالاستقلالية النضالية للشعب العربي الفلسطيني اذن هي ضمانة استمرار التصادم الكفاحي مع العدو الصهيوني بغض النظر عن الأوضاع الذاتية العربية وموازين القوى في الصراع مع العدو، وبالتالي هي ضمانة استمرار المعركة القومية اللاهبة مع أعداء هذه الأمة، هذه المعركة وحدها القادرة على توحيد المشاعر والطاقات، واسقاط الصغائر والحساسيات، واطلاق الآمال والامكانات، بل هي المعركة المؤهلة لخلق القاعدة الراسخة لوحدة النضال العربي التي هي أساس نضال الوحدة» (بشور، في سبيل الوحدة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١٨٣). وهنا من السهل أن نلاحظ عدم الترابط المنهجي بين المقدمة والنتيجة، قبل، ثم بعد، كلمة «وبالتالي»، ثم كيف: هل نستطيع